فبينما هو يلعب يوماً مع الغِلمان خلف البيوت إذ جاء أخوه يشتد فقال لي ولأبيه: أدركا أخي القُرَشي، فقد جاءه رجلان فأضجعاه وشقَّا بطنه، قالت: فخرجنا نشتد نحوه، فانتهينا إليه وهو قائم ممتقع لونه، فاعتنقته واعتنقه أبوه وقال: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقَّا بطني، ووالله ما أدري ما صنعا. قالت حليمة: فاحتملناه فرجعنا به، قالت: يقول زوجي: يا حليمة، والله ما أرى الغلام إلا قد أصيب، فانطلقي فلنَرُدّه إلى أمه قبل أن يظهر به ما نتخوف عليه. فرجعنا به إلى أمه، فقالت: ما ردَّكما به وقد كنتما حريصين عليه؟ فقلنا لها: قد كفلناه وأدَّينا ما علينا من الحق فيه، ثم تخوفنا عليه الأحداث فقلنا: يكون عند أمه. فقالت: والله ما ذاك بكما، فأخبراني خبره، فأخبرناها. فقالت: أتخوفتما عليه، والله إن لابني هذا لشأناً[1].

* * *

السنة الثالثة من مولده ﷺ

فيها ولد أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ودخلت السنة الرابعة وبعض الخامسة، وهو ﷺ عند حليمة السعدية رضي الله عنها.

* * *

السنة الخامسة من مولده ﷺ

وفيها شق بطنه.

قال شداد بن أوس: جاء رجل من بني عامر إلى النبي ﷺ فقال: أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ فأخبرني عن بدء أمرك، فقال: «يا أَخا بني عامر، بَدْءُ أَمري دَعوةُ أخي إبراهيمَ، وبُشرى أخي عيسى، وإنِّي كنتُ مسترضعاً في بني سعدٍ، فبينا أنا ذاتَ يوم مُنْتَبِذٌ مع أتراب لي من الغِلمان في وادٍ بعيدٍ عن أهلي، إذا بثلاثة رهطٍ معهم طَسْتٌ من ذَهب قد

(١) «السيرة» ١/ ١٤٨ـ١٥٣، والنقل عن «المنتظم» ٢/ ٢٦١ـ٢٦٣.

مُلئ ثلجاً، فأَخَذني واحدٌ منهم، فَهَرب أَتْرابي ووَقَفوا على شَفير الوَادِي، ثم أقبلُوا على القومِ وقالوا: يا قومُ، إنَّ هذا الغُلام ليس منَّا إنما هو مستَرْضَع فينا، وهو ابن سيد قريش وهو يتيمٌ، فماذا يَرُدُّ عليكم قَتْلُه؟ فإن كنتم لا بدَّ قاتليه فاختاروا أيَّنا شِئتُم منَّا فاقتلوه عِوَضَهُ، فلم يردوا عليهم جواباً، فانطلقوا هاربين يستصرخون الحي، فعَمد أحدُهم فأَضجَعَني إضجاعاً رفيقاً، ثم شقَّ ما بين مَفرِق صَدْري إلى منتهى عانتي، ولم أجد لذلك مسّاً، ثم أَخرج أحشاءَ بطني فغسَلَها بماء وثلج، فأنعم غسلها، ثم ردها إلى مكانها، ثم جاء آخر فأخرج من قلبي مُضْغَةً سوداء فرمى بها، وإذا بيده خاتم النبوة من نور فختم به قلبي، فامتلأ نوراً ثم ردَّه إلى مكانه، فوجدت بَرْدَ الخاتم في قلبي دهراً، ثم أمَرَّ الثالث يده على صدري فالْتَأَم ذلك الشَّق بإذن الله، ثم أخذ بيدي فأنهضني، ثم قال لصاحبه: زِنه، اجعله في كفة واجعل ألفاً من أمته في كفة، ففعل وأنا أنظر إلى الألف، فرجحت عليهم، فانطلقوا وهم يقولون: لو أن أمته وزنت به لمال بهم، ثم أقعدوني وقبَّلوا رأسي وقالوا: يا حبيب، لا تُرَعْ؛ إنك لا تدري ماذا يُراد منك ـ أو بك ـ لو علمت لقَرَّت عَيْناك، قال: فبينا نحن كذلك، وإذا بالحي قد أقبلوا بحذافيرهم ـ أي بأسرهم ـ وإذا بأمي وهي تهتف في أوائلهم وتقول بأعلى صوتها: واضعيفاه. فقال أحدهم: حبذا أنت من ضعيف، فقالت: يا يتيماه. فقال الآخر: حبذا أنت من يتيم، فقالت: ياوحيداه[1]. فقال الآخر: حبذا أنت من وحيد، ثم ضمتني إلى صدرها وجَعَلت تقول: استُضْعِفْتَ من بين أترابك وتبكي، فوالذي نفسي بيده إني لفي حِجرها وإن يدي في يد بعض القوم، وأنا ألتفت إليهم أظن أنَّ القوم يبصرونهم، فقال له بعض أهل الحي: هذا الغلام قد أصابه لَمَم، فانطلقوا به إلى الكاهن لينظر إليه، فذهبوا بي إلى الكاهن، فسألني عن قصتي؟ فأخبرته، وضمني إلى صدره وصاح بأعلى صوته: يا معاشر العرب، اقتلوه واقتلوني معه، فواللات والعزى لئن تركتموه ليبدِّلن دينكم، فقالت أمي: انظر لنفسك قاتلاً غيري، فإن ولدنا ما به مما قلت شيء، ولقد شبه عليك[2].

---

(١) في النسخ: «ياواحداه» والمثبت من «المنتظم» و«تاريخ دمشق».

(٢) انظر «تاريخ دمشق» (قسم السيرة) ١/ ٣٨٠ـ٣٨٣، و«المنتظم» ٢/ ٢٦٥ـ٢٦٧. وضعفه ابن عساكر، وقال ابن كثير في «البداية» ٢/ ٢٥٦: وفيه عمر بن الصبح وهو متروك كذاب متهم بالوضع.

قال الواقدي: لما تم له خمس سنين؛ قدمت به حليمة مكةَ، وقد رأت غمامة تُظله في الطريق، إن سار سارَتْ، وإن يقف وقفت، فأفزعها ذلك، فلما قربت من مكة؛ نامت في بعض الأباطح، ثم انتبهت فلم تجده[1].

وذكر الثعلبي في «تفسيره» القصة عن كعب الأحبار قال: لما قضت حليمة حق الرضاع أتت بالنبي ﷺ إلى مكة لترده إلى عبد المطلب، قالت: فأتيت به إلى الباب الأعظم من أبواب مكة، فسمعت منادياً ينادي: هنيئاً لك يا بطحاء مكة، اليوم يرد عليك النور والدين والجمال والبهاء، قالت: فوضعته عند الباب وذهبت لأصلح من شأني، فسمعت هدَّةً شديدة فالتفت فلم أره، فقلت: يا معاشر الناس، أين الصبي؟ فقالوا: أي الصبيان تعنين؟ قلت: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، نضر الله به وجهي، وأغْنى عَيْلَتي، ربيته حتى إذا أدركت فيه سروري وأملي، اختلس من يدي قبل أن تمس قدماه الأرضَ، واللَّاتِ والعُزَّى لئن لم أره لأرمين نفسي من شاهق هذا الجبل فلأُقَطَّعَنَّ إرْباً إرْباً، فقالوا: ما رأينا أحداً. قالت: فلما آيسوني وضعت يدي على أم رأسي وقلت: وامحمداه، واولداه، فأبكيت الجواري والأبكار ببكائي، وإذا بشيخ فانٍ يتوكأ على عصاه، قال: ما لك يا سعدية؟ فقلت: فقدت ابني محمداً.

فقال: لا تبكي أنا أدلك على من يَعْلمُ عِلْمَه، وإن شاء أن يرده عليك فعل، قلت: فدتك نفسي من هو؟ قال: الصنم الأعظم هبل. فقالت: فدخل، وطاف بهبل، وقبَّل رأسه، وناداه: أيها الإله الأعظم، لم تَزَلْ مِنَّتُكَ على قُريش عظيمةً، وهذه السعدية تزعم أن محمداً قد ضَلَّ، فَرُدَّه عليها. قالت: فأكب هبل على وجهه، وتساقطت الأصنام وقالت: إليك عنا يا شيخ، إنما هلاكنا على يد محمد. فأقبل الشيخ وأنا أسمع لأسنانه اصطكاكاً، ولركبتيه ارتعاداً، وقال: يا حليمة، إن لابنك ربّاً لا يضيعه، فاطلبيه على مهل. قالت: فأتيت إلى عبد المطلب، فلما رآني على ذلك، قال: أَسعْدٌ نزل بك أم نحس؟ قلت: نحس. ففهم وقال: لعل ابنك قد ضل منك؟ قلت: نعم. فسلَّ سيفه ـ وكان لا يثبت له أحد ـ [ونادى بأعلى صوته]: يا آل غالب يا آل غالب، فأجابته

(١) انظر «الطبقات الكبرى» لابن سعد ١/ ٩١، وأخرج ابن سعد أيضاً ١/ ١٢٦ـ١٢٧: أن أخته هي التي رأت الغمامة تظله.

قريش بأجمعها، فأخبرهم الخبر وركب وركبوا معه، وقالوا: إن تسنَّمت جبلاً تسنمناه معك، وإن خُضْتَ البحر خضناه، ثم خرج إلى أعلى مكة وأسفلها فلم يجد شيئاً. فأتى إلى الكعبة، وطاف أسبوعاً، ثم قال: [من الرجز]

يـــا ربِّ أُرْدُدْ ولـــدي مـــحـــمـــداً رُدَّهْ إلـــيَّ واتَّـــخِـــذْ عـــنـــدي يـــدا

فسمع منادياً من السماء: أيها الناس، إن لمحمد رباً لا يضيعه. فقال عبد المطلب: وأين هو؟ قال: بوادي تهامة عند شجرة اليمن، فخرج عبد المطلب ولقيه ورقة بن نوفل، وسارا جميعاً إلى ذلك المكان، وإذا به تحت الشجرة، فاحتمله عبد المطلب على قَرَبوس سَرْجِه، وعاد به إلى مكة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضّحى: ٧] على أحد الأقوال[١].

وأما حليمة، فإنها أسلمت وأسلم زوجها، وقدمت مكة بعد ما تزوج رسول الله ﷺ خديجة رضي الله عنها، فشكت إليه جَدْبَ البلاد، فكلم خديجة فأعطتها أربعين شاة وبعيراً، ثم قدمت عليه بعد النبوة فأسلمت.

قال الواقدي: لما قدمت عليه، قال: أمي أمي، وبسط لها رداءه فجلست عليه[٢].

* * *

السنة السادسة من مولده ﷺ

وفيها توفيت والدته ﷺ.

قال الزهري: لما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين، خرجت به أمه إلى المدينة إلى أخواله من بني عَديِّ بن النجار، فنزلت دار النابغة[٣] الجعدي التي مات فيها أبوه،

---

(١) تفسير الثعلبي ١٠/ ٢٢٦ـ٢٢٨، وانظر «دلائل النبوة» للبيهقي ١/ ١٤٢ـ١٤٣، وقد أخرج القصة مختصرة، ابن سعد في «الطبقات» ١/ ٩١ـ٩٢، والبلاذري في «أنساب الأشراف» ١/ ٩٣ـ٩٤، وابن الجوزي في «المنتظم» ٢/ ٢٦٩. وانظر «سمط النجوم العوالي» ١/ ٢٦٧.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ٩٣.

(٣) كذا هي في الأصول الخطية، وضبطها صاحب «السيرة الشامية» ١/ ٤٠٠: التابعة بالتاء، وعند الطبري ٢/ ٢٤٦ بالروايتين، وانظر المنتظم ٢/ ٢٧٢، والوفا ١١٤.